القولُ العدل وقبول الأعمال

أدبُ الحديث في الكتاب والسنّة

السيّد مهدي الصدر

من وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لابن النعمان، قال: «..إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصّمتَ، وأنتُم تتعلّمونَ الكلامَ».

مقتطف قيّم من كتاب (أخلاق أهل البيت: ص ١٦١-١٦٤) للعلامة السيّد مهدي الصدر رحمه الله، يتناول فضيلة تعويد اللسان على طيب الكلام، وآفة ما خبُث منه وما كان من الفضول، في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

«شعائر»

من استقرأ أحداث المشاكل الاجتماعية، والأزمات المعكّرة لصفو المجتمع، علم أنّ منشأها في الأغلب بوادر اللسان، وتبادل المهاترات الباعثة على توتّر العلائق الاجتماعية، وإثارة الضغائن والأحقاد بين أفراد المجتمع. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ..﴾ الإسراء:٥٣.

من أجل ذلك كان صَون اللسان عن تلك القوارص والمباذل، وتعويده على الكلم الطيّب والحديث المهذّب النبيل، ضرورة حازمة يفرضها أدب الكلام، وتقتضيها مصلحة الفرد والمجتمع. فطِيب الحديث، وحسن المقال، من سِمات النّبل والكمال، ودواعي التقدير والإعزاز، وعوامل الظفر والنجاح.

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى التحلّي بأدب الحديث، وطيب القول، بصنوف الآيات والأخبار، وركّزت على ذلك تركيزاً متواصلاً إشاعةً للسلام الاجتماعي، وتعزيزاً لأواصر المجتمع.

قال تعالى: ﴿..وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا..﴾ البقرة:٨٣.

وقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الأحزاب:٧٠.

وجاء رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقال: «يا رَسُولَ الله أوْصِنِي. فَقَالَ: **احفَظْ لِسانَكَ...وهل يَكُبُّ النَّاسَ على مَناخِرِهِم في النَّارِ إلَّا حَصائِدُ ألْسِنَتِهِم**».

* وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**القَولُ الحَسَنُ يُثْرِي المَالَ، ويُنمِي الرِّزقَ، ويُنسِئُ فِي الأَجَلِ، ويُدْخِلُ الجنّة**».

وقال الصادق عليه السلام لعبّاد بن كثير البَصري: «**وَيْحَكَ يا عبّادُ، غرَّكَ أنْ عفَّ بَطْنُكَ وفرْجُكَ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَقُولُ في كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ...﴾، اعلَمْ أنّه لا يَتَقبَّلُ الله منكَ شَيْئاً حَتَّى تَقُولَ قَولاً عَدلاً**».

وقال رجل لأبي الحسن الكاظم عليه السلام: «أَوْصِنِي. فَقَالَ لَه: **احفَظْ لِسانَكَ تُعزَّ، ولا تُمكِّنِ الناسَ من قِيادِكَ فتُذِلَّ رَقَبَتَكَ**».

وعنه عليه السلام: «**قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: رَحِمَ اللهُ عبداً قال خَيراً فَغَنِمَ، أو سَكَتَ عن سُوءٍ فَسَلِم**».

ونستجلي من تلك النصوص الموجِّهة ضرورة التمسّك بأدب الحديث، وصَون اللسان عن البذاء، وتعويده على الكلم الطيّب، والقول الحسن. فللكلام العفيف النبيل حلاوته ووقعه في نفوس الأصدقاء والأعداء معاً، ففي الأصدقاء ينمّي الحب، ويستديم الودّ، ويمنع نزغ الشيطان في إفساد علائق الصداقة والمودة. وفي الأعداء يلطّف مشاعر العداء، ويخفّف من إساءتهم وكيدهم. لذلك نجد العظماء يرتاضون على ضبط ألسنتهم، وصيانتها من العثرات والفلتات.

للكلام العفيف النبيل حلاوته، ووقعه في نفوس الأصدقاء والأعداء معاً؛ ينمّي الحبّ ويستديم الودّ، ويمنع نزغ الشيطان

كما تختم على ذهبك

ليس شيء أدلّ على غباء الإنسان وحماقته من الثرثرة، وفضول القول، وبذاءة اللسان. فقد مرّ أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام، برجلٍ يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عليه فقال: «**يا هذا، إنّكَ تُملي على حافِظَيْكَ كتاباً إلى رَبِّكَ، فتكَلّم بِما يَعنيك، ودعْ ما لا يَعنيك**».

وقال عليه السلام: «**..مَنْ كَثُرَ كَلامُه كَثُرَ خَطَؤُه، ومَنْ كَثُرَ خَطَؤُه قَلَّ حَياؤُه، ومَنْ قَلَّ حَياؤُه قَلَّ وَرَعُه، ومَنْ قَلَّ وَرَعُه مَاتَ قَلْبُه، ومَنْ مَاتَ قَلْبُه دَخَلَ النَّارَ**».

وعن سليمان بن مهران، قال: «دخلتُ على الصادق عليه السلام وعنده نَفَرٌ من الشّيعة، فسَمعتُه وهو يقول: **مَعاشِرَ الشّيعة... قولوا للنّاسِ حُسناً، واحفَظوا ألسنَتَكُم، وكُفّوها عن الفُضولِ وقَبيحِ القَول**».

دعت الشريعة الإسلامية إلى التحلّي بأدب الحديث، وطيب القول، إشاعةً للسلام الاجتماعي، وتعزيزاً لأواصر المجتمع

وتوقّياً من بوادر اللسان ومآسيه الخطيرة، فقد حثّت النصوص على الصمت، وعفّة اللسان، ليأمَنَ المرء كبوته وعثراته المدمّرة:

عن الباقر عليه السلام، قال: «**كانَ أَبو ذرٍّ رحمَه الله، يقولُ: يَا مُبتَغيَ العِلمِ، إنَّ هذا اللسانَ مِفتاحُ خَيرٍ ومِفتاحُ شرٍّ؛ فاختِمْ على لِسانِكَ كما تَختِمُ على ذهَبِكَ ووَرِقِكَ**».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**الصّمتُ كَنزٌ وافِرٌ، وزَينُ الحَليمِ، وسَترُ الجاهل**».

رضى الله ورسوله منوطٌ برضاها

الزهراء مَعْلمُ الحقّ في ظلمات الفتن

العلامة الشيخ محمّد مهدي الآصفي رحمه الله

كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يرى الفتنة من بعده نازلة، لذا حرص أبلغ الحرص أن يبيّن للناس معالم الحقّ والهداية، حتى يتمسّكوا بها ولا يسقطوا في هذه الفتنة.

وقد جعل صلّى الله عليه وآله، كما أمره الله تعالى، من أهل بيته المَعْلَم الثاني بعد القرآن الكريم في هذه الفتنة، في حديث اشتُهر وصحّ عند المسلمين جميعاً، وهو حديث الثّقلين، وقد تواترت روايته عن رسول الله صلّى الله عليه وآله واستفاضت، وصحّت طائفة كبيرة من طُرقه.

ومن طرقه: ما رواه الترمذيّ في (الصحيح): عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر؛ كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض وعِترتي أهلَ بيتي، ولن يفترقا حتّى يَردا عَليّ الحوض، فانظروا كيف تُخلّفوني فيهما**».

(صحيح الترمذي، كتاب المناقب: ٣/ ٢٠٠-٢٠١)

وخصّ أميرَ المؤمنين عليّاً عليه السلام بذلك، فجعله مَعْلَماً من أكبر المعالم وأصحّها من بعده، وقد صحّت فيه روايات لا يُمكن الخدش والتشكيك فيها، منها:

- عن أمّ سلَمة، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**عليٌّ مع القرآن، والقرآنُ مع عليّ، لن يفترقا حتّى يردا عَليّ الحوض**». صحّحه الحاكم على شرط الشيخين وصحّحه الذهبي.

(الحاكم في مستدرك الصحيحين: ٣/ ١٣٤)

وفاطمة الزهراء عليها السلام ابنة رسول الله صلّى الله عليه وآله في مقدّمة معالم الحقّ، وأعلام الهدى. والذي يقرأ النصوص الواردة فيها، من الكتاب العزيز وما صحّ من سُنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله ينتهي الى نتيجة حتمية لا يُمكن التشكيك فيها، وهي حجّية كلمات الزهراء عليها السلام ومواقفها، ورضاها، واعتراضها، وغضبها، وسَخَطها. بمعنى أنّ الله تعالى جعل حديثها وكلامها ومواقفها حجّة على المسلمين.

ومن النصوص المباشرة التي تدلّ على هذه الحقيقة وتثبتها، نذكر نموذجاً واحداً من كتاب الله تعالى، ونموذجين مما صحّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، من الرواية في فاطمة الزهراء عليها السلام.

يقول الله تعالى: ﴿..إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. [الأحزاب:٣٣]

وقد استعرضتُ الروايات الواردة في تفسير هذه الآية، والتي روى طائفة منها الطبري في (تفسيره)، والسيوطي في (الدرّ المنثور)، وابن كثير في (التفسير)، وغيرهم، فوجدت أنّ الروايات الحاصرة لأهل البيت -الذين أذهب الله عنهم الرجس- في الخمسة من أصحاب الكساء، لا غير، (رسول الله، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كثيرة، وفيها روايات صِحاح لا يمكن لعالِم ومُحدِّث يحترم علمه أن يتجاوزها.

إنّ أقل ما تدل عليه هذه الآية هو أنّ هؤلاء الأربعة الذين ضمّهم النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى نفسه تحت الكساء، عند نزول الآية، وقال: «**اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي**»، لا يقفون موقفاً باطلاً قطّ؛ فإنّ الباطل أبرز مصاديق الرِّجس، والحقّ أبرز مصاديق الطُّهر. . ولن يدخل أهلُ البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس في موقف باطل، ولن يميلوا ولن ينزعوا إلى باطل قطّ، حاشاهم.

فإذا عمّت الفتنة الناس، والتبس الحقّ بالباطل، فإنّ في موقف أهل البيت، ورضاهم وغضبهم وإقبالهم وإعراضهم تمييزاً للحقّ عن الباطل.

الرجس من مصاديق الباطل، والحقّ أبرز مصاديق الطّهر.. ولن يدخل أهل البيت عليهم السلام، الذين اذهب الله عنهم الرجس في موقف باطل قط

وقد تصدّرت الآية الكريمة بـ«إنّما»، وهي من أقوى أدوات الحصر في اللغة العربية، فيكون معنى الآية الكريمة: إنّ إرادة الله فيكم، أهلَ البيت، هو التطهير من كلّ رِجْسٍ ودنَس، ولن يكون لله تعالى مشيئة أخرى فيكم غير ذلك.

والروايات التي تشير إلى أن موضع الزهراء عليها السلام في الفِتَن السياسية والدينية هو «المعْلَم» و«الميزان» للحقّ كثيرة، وسوف نقتصر منها على نموذجين فقط، وهما الروايات الدالّة على:

أ) أن الله تعالى يغضبُ لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها:

روى الحاكم النيسابوريّ بسنده، عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لفاطمة: «**إن الله يغضبُ لِغضبِك ويَرضى لرضاكِ**».

(مستدرك الصحيحين للحاكم: ٣/ ١٥٣).

أعلن رسول الله صلّى الله عليه وآله، أنّ رضى الزهراء عليها السلام وغضبها، علامة ومعْلَم ومعيار للحقّ والباطل

وبهذا المضمون روايات أخرى، اقتصرنا منها على ما ذكرناه.

ب) إن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يغضبُ لغضب فاطمة ويرضى لرضاها:

وردت بهذا المضمون أحاديث كثيرة متظافرة، فيها الكثير من الصحاح، نذكر منها:

روى البخاري في كتاب «بدء الخلق» في باب مناقب قرابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومناقب فاطمة عليها السلام، بسنده عن المسوّر بن مخرمة، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**فاطمة بضعةٌ منّي، فمَن أغضبها أغضبني**».

(صحيح البخاري: ٤/ ٢١٠).

ومن يتأمّل هذه الروايات، يجد من دون جهد ومعاناة ولا تكلّف: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يُشْهِر في هذه الأحاديث ابنته فاطمة عليها السلام معياراً لتمييز الحقّ عن الباطل، ومَعلماً للهداية في ظروف الفتن السياسية الكبرى التي تحدث بعد وفاته. فإنّ كلمات «الرّضى» و«الغضب» و«الأذى» الواردة في هذه النصوص من شؤون الصراعات السياسية، وتقاطع الولاءات والبراءات، وتقاطع الحب والبغض.

ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعلن أنّ رضى الزهراء عليها السلام وغضبها علامة ومَعْلم ومعيار للحقّ والباطل في وسط هذا الصراع، عندما تشتبك الخطوط، ويتداخل الحقّ والباطل، ويلتبس الأمر على الناس في الحقّ والباطل.

وفي مثل هذه الظروف إذا أراد الناس أن يعرفوا رضى الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم وغضبهما، فما عليهم إلاّ أن يلتمسوا أين تضع الزهراء عليها السلام رضاها وغضبها، فإنها لا تحيد عن الحقّ، ولا تميل إلى الباطل، ورضاها من رضى الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله، وغضبها من غضب الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله.

عمود راية القائم

عن أبي حمزة الثماليّ، قال: «قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام:

يا ثابت، كأني بقائمِ أهلِ بيتي قد أشرف على نجفِكم هذا -وأومأ بيده إلى ناحية الكوفة- **فإذا هو أشرف على نجفِكم نشرَ رايةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإذا هو نشرَها انحطّت عليه ملائكةُ بدر** .

قلت: وما راية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟

قال: **عمودُها من عُمُد عرشِ الله ورحمتِه، وسائرُها من نصر الله، لا يهوي بها إلى شيءٍ إلا أهلكَه الله**.

قلت: فمخبوءةٌ عندكم حتّى يقوم القائم عليه السلام فيَجِدُها، أم يُؤتى بها؟

قال: **لا، بل يُؤتى بها**.

قلت: مَن يأتيه بها؟ قال: **جبرئيلُ عليه السلام**».

(غَيبة النعماني: ص ٣٢١)